التواصل الأدبي

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بقضايا الأدب والنقد

تصدر عن مخبر الأدب العام والمقارن

كلية الآداب والعلوم والإنسانية والاجتماعية

جامعة باجي مختار/عنابة (الجزائر)

العدد الأول

جوان 2007

التواصل الأدبي

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بقضايا الأدب والنقد

تصدر عن مخبر الأدب العام والمقارن

كلية الآداب والعلوم والإنسانية–جامعة باجي مختار/عنابة

إدارة المجلة:

مدير المجلة: أ .د عبد المجيد حنون

رئيس التحرير: د.محمد بلواهم

أمانة التحرير:

–أ نظيرة الكتر

–أ.نجاة عرب الشعبة

العنوان: مخبر الأدب العام والمقارن، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار عنابة، ص ب 12 .عنابة 23000/الجزائر

الهاتف والفاكس:49-51-84-(038)/ 25-75-84-(038)

البريد الإلكتروني:ettaoussouleladabi@yahoo.fr

الترقيم الدولي الموحّد للمجلات: ISSN 1112-7597

العدد الأول: جوان 2007.

أعضاء هيئة التحرير:

1-د. محمد بلواهم

2-أ. نظيرة الكتر

3-أ. نجاة عرب الشعبة

الأعضاء

1-أ. د الطاهر روابنية

2-أ. د حفناوي بعلي

3-د . صالح ولعة

4-أ. نسيمة عيلان

5-أ. عمار رجال

6-أ. عبد الحليم منصوري

7-أ. علي خفيف

أعضاء الهيئة الاستشارية:

1-أ. د مختار نويوات (جامعة عنابة)

2-أ. د عبد الحميد بورايو (جامعة الجزائر)

3-أ. د الطيب بودربالة (جامعة باتنة)

4- أ. د عبد الواحد شريفي (جامعة وهران)

5- أ. د عز الدين مخزومي(جامعة وهران)

6-أ.د حبيب منسي (جامعة سيدي بلعباس)

7-أ. د عيسى بريهمات (جامعة الأغواط)

8-أ. د أحمد منور (جامعة الجزائر)

شروط النشر في المجلة:

1-تنشر المجلة البحوث والدراسات العلمية التي تعنى بقضايا الأدب العام والمقارن والنقد والترجمة، وتتسم بالعمق والجدة والأصالة.

2-ترسل الدراسات في نسختين وقرص مرن، ويكون حجم المقال في حدود (20) صفحة مقاسها 16×24، مع كتابة الإحالات والمراجع مرقمة في آخر المقال.

3- تكتب المقالات بخط (Traditional Arabic) من عيار 16، وبرنامج (Microsoft Word) أو نظام (RTF).

4-ينبغي أن ترفق المقالات بملخص تحدد فيه الإشكالية وأهم العناصر والأهداف المتوخاة من الدراسة.

5-تخضع المقالات للتحكيم العلمي من الهيئة العلمية.

6-تقوم هيئة التحرير بإخطار أصحاب المقالات في حالة عدم النشر لسبب من الأسباب.

7-المقالات لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

8-المقالات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن المجلة.

9-يتحصل أصحاب المقالات على نسخة من المجلة وخمس مستلات من المقال.

10-ترسل المواد إلى رئيس تحرير مجلة التواصل الأدبي، مخبر الأدب العام والمقارن

العنوان: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار عنابة،
ص ب 12- عنابة 23000/ الجزائر.

الهاتف والفاكس: 49-51-84-(038)/ 25-75-84-(038)

البريد الإلكتروني: ettaoussouleladabi@yahoo.fr

الفهرس

الموضوع الصفحة

افتتاح/كلمة مدير المجلة..... 7-6

قراءة في العدد بقلم رئيس التحرير.....12-8

1- من عولمة الأسطورة إلى أسطورة العولمة(بحث في الأصول الشرقية لبعض الأساطير الغربية)

أ. **عبد الحليم منصوري**.....25-13

2- في الأسطورة والأسطورة الأنثوية (مقاربة نظرية في الماهية والحدود).

أ. **نظيرة الكتر** 42-26

3- الخطاب النسوي في أسطورة شهرزاد الأدبية.

أ.**د عبد المجيد حنون**.....60-43

4-حضور إلياذة هوميروس في أدب النوبة بمصر

أ. **نسيمة عيلان**..... 70-61

5-فاوست ومسرحية "السراب" لسعد الله ونوس

أ.**عمار رجال**.....79-71

6-الممارسة النقدية عند الآمدى من خلال كتابه " الموازنة بين الطائيين "

أ.**نورة جبلي**.....89-80

7-أبعاد التوظيف التراثي عند طه حسين

أ. **ماجدة بن عميرة**.....111-90

8-عز الدين المناصرة .. ناقدا أدبيا وثقافيا ومقارنا

أ. د حفناوي بعلي 142-112
9-حدود الأدبية
أ.د. الطاهر روابنية..... 149-143
10-مكونات الصورة السردية وموضوعاتها في قصص الأطفال.
أ.عائشة رماش..... 162-150
11-الفن الروائي وفعالية المصطلح النقدي
أ نجاة عرب الشعبة..... 179-163
12-القراءة والتأويل
د. صالح ولعة..... 196-180
13-سيمياء الفضاء المسرحي
د.إسماعيل ابن صفية 210-197
14-تحولات العشق قراءة في قصيدة "بيروت" لمحمود درويش
د . أحمد ياسين العرود..... 240-211
15-المستشرقون ودراسة الأدب العربي
أ. فتيحة سريدي..... 263-241
16-المخبر في سطور..... 265-264

كلمة مدير المجلة:

أيّها القارئ الكريم

يسرّ أسرة مخبر الأدب العام والمقارن أن تقدم إليك هذا العدد الأوّل، من مجلة التواصل الأدبي التي يعتزم أن يصدرها مرتين في السنة لنشر نتاجه في ميادين اهتمام أعضائه العلمية مثل الأدب العام والمقارن والنقد وتحليل الخطاب والأدب التمثيلي والأدب الهامشي...إلخ، ونشر كلّ جديد في الميادين السابقة الذكر يرد إليه من المختصين والمهتمين داخل الوطن وخارجه سعيا منه إلى تثمين الجهود البحثية واستقطاب الكفاءات العلمية في هذا المجال المعرفي الذي حقّق نتائج باهرة عند الآخرين ومازال يخطو خطواته الأولى عندنا رغم عظمة الظاهرة الأدبية العربية وثرائها وتنوّعها لسانيا وأجناسا، ورغم تفاعلاتها الداخلية والخارجية قديما وحديثا.

يصدر المخبر العدد الأول من مجلته الآن، بعدما سلخ من عمره سبع سنوات أرسى فيها دعائمه وهياكله، وأنجز عددا من مشاريع البحث، والنشاطات العلمية وكوّن عددا معتبرا من طلبة الماجستير والدكتوراه في مجالات ذات صلة وثيقة بطبيعة المخبر، وبذلك أصبح يتوفر على طاقات وكفاءات تمكّنه من إصدار مجلة يريدها علمية أكاديمية تعمل من أجل تراكم معرفي في الأدب العام والمقارن وكلّ ما يتصل به.

اختار المخبر لمجلته اسم **التواصل الأدبي** تماشيا مع اهتماماته التي تقوم أساسا على دراسة الظاهرة الأدبية في تفاعلاتها الداخلية والخارجية شكلا ومضمونا؛ أي في تواصلها مع الأنا والآخر، وبالتالي فإنّ همّ المخبر الأساس يتمثل في دراسة ما يحدثه الأدب من تواصل، الأمر الذي جعل هيئة التحرير تختار هذا الاسم لتتواصل أدبيا مع الماضي والحاضر، مع الأنا والآخر، وبالتالي تتواصل مع الحياة عن طريق دراسة الأدب بوساطة مجلة **التواصل الأدبي**.

تسعى هذه المجلة، من خلال هيئتها المدبّرة وهيئتها العلمية ومن خلال كلّ الكفاءات التي ستسهم فيها إلى الثبات والاستمرار في الزمان والانتشار عبر المكان لتبليغ رسالتها المعرفية إلى كلّ قارئ مهتم بقضايا الأدب العام والمقارن داخل الجزائر أو خارجها، عن طريق الصدور مرتين كلّ سنة في شكل مجلة ورقية في المرحلة الأولى؛ والانتقال إلى صيغة رقمية بعد ذلك في مرحلة ثانية تماشيا مع متطلبات العصر.

ولتحقيق ما سبق ذكره، فإنّ المجلة ترحّب بكلّ الكفاءات العلمية المهتمة بقضايا الأدب العام والمقارن للإسهام فيها وإثرائهما بما يجد من بحوث ودراسات، بغية ترسيخ ثقافة أدبية أصيلة من جهة ومتفتحة على التطوّر المعرفي وعلى الآخر من جهة أخرى.

ويبقى نجاح هذه المجلة واستمرارها رهين تظافر جهود المخبر والباحثين والقراء لفائدة الجميع أولا والتطوّر المعرفي ثانيا.

مدير المخبر

أ.د. عبد المجيد حنون

قراءة في العدد

هذا العدد، هو فاتحة مجلة التواصل الأدبي التي يصدرها مخبر الأدب العام والمقارن، ويجب ألاّ يخفى أن المخبر يضيف بهذا الصنيع نشاطا آخر إلى جملة نشاطاته الفكرية السابقة.

تهدف المجلة عبر هذا الفضاء النوعي الذي يقصر عملها على مجال الأدب العام والمقارن، إلى إتاحة الفرصة أمام الأقلام المتخصصة لكي تفري فريها في هذا المجال.

ومن أجل إدراك تلك الغاية كان لزاما على القائمين على المجلة الأخذ بنظر الاعتبار الأساسيات التالية:

أ. الانفتاح على الآخر: حيث يقتضي الانفتاح عدم التقوقع على الذات والاكتفاء بها مرسلا ومتلقيا وحسب، ويشير الآخر إلى الأمم الأخرى التي تتميز عنا عرقا، وثقافة، وبالتالي تتحول إلى مصدر مهم يغذي حياتنا الفكرية.

ب. الامتداد في المكان: يتم التواصل مع الآخر وفقا لهذا الامتداد في شتى أصقاع الكرة الأرضية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

ج. الامتداد في الزمان: يتم بموجبه معالجة القضايا الخاصة بهذا الحقل قديما وحديثا على حدّ سواء، ولذلك تجدنا نفتش بعين في التراث الإنساني القديم، ونلاحق بأخرى ما يستجد حديثا.

لا شك في أن المجلة تخطو بفضل هذا العدد أول خطوة باتجاه ما تطمح إليه وفق ما يتبدى من جملة القضايا المتنوعة الواردة في هذا العدد، فإلى جانب الحديث عن الأسطورة والملحمة، نلفى الحديث عن السيمياء ونظرية التلقي.

ولعل هذه القراءة الموجزة في هذا العدد، تنير الكثير من الأمور:

-الأسطورة :

ارتبط ميلاد الأسطورة بتكون المجتمعات الإنسانية قديما، وهو ما يعرف على الصعيد الحضاري بالطور البدائي، ولكنها ما فتئت تخترق آفاق الأطوار الحضارية المتعاقبة، ويكفي دليلا على ذلك، أنها مازالت تحظى بالاهتمام في عصرنا الراهن، بالرغم من التطور العلمي المذهل الذي جعل " **ماروزو**" يجزم بأن عقلية الشعوب المعاصرة ليست عقلية أسطورية أو لا ملحمية.

ولكن هناك من يرجع عدم موت الأسطورة في العصر الحديث إلى الثنائية الحادة التي تعيشها الإنسانية(بداوة/ حضارة)، فهو بدائي و حضاري في آن.

وفي هذا السياق يرى "**يونغ**" أن الفكر البدائي مستمر عبر النماذج العليا L'archétypes، حيث تنسرب الأفكار القديمة عن طريق اللاوعي الجمعي وبالتالي تستمر.

ويعزز هذا الرأي (ت.س إليوت) في قصيدته "الأرض الخراب أو اليباب" بأن الإنسانية تعيش حالة بداوة بالرغم من هذه القشرة الخارجية التي تسمى حضارة، وعلى حدّ قول نزار قباني :" لبسنا لباس الحضارة والروح جاهلية".

ومن المنطقي أن يؤدي استمرار هذا الفكر الأسطوري إلى أسطرة اللاّأسطوري، بإضفاء بعض الخصائص التي تضعه في مصاف الأسطوري، كصنيع بعض الأدباء حين يبالغون في وصف بعض المشاهد أو رسم بعض الشخصيات.

دارت المقالات الخاصة بالأسطورة في هذا العدد على تحديد مهد الأساطير، وماهيتها، وأنواعها، وتجلياتها الأدبية عبر عصور مختلفة.

يحدد عبد الحليم منصوري من خلال بحثه الموسوم بـــ [من عولمة الأسطورة وأسطورة العولمة (بحث في الأصول الشرقية عن بعض الأساطير الغربية)] أنّ مهد

الأسطورة الشرق والغرب على حد سواء، مؤكدا هجرة الأساطير من مكان إلى آخر من خلال إماطة اللثام عن الأصول الشرقية لبعض الأساطير الغربية.

وتحدد نظيرة الكتر في بحثها [في الأسطورة والأسطورة الأنثوية(مقاربة في الماهية والحدود)] ثلاثة مصادر للأسطورة، أو ثلاث مرتكزات على حد تعبيرها، هي :

1. المرتكز الأسطوري
2. المرتكز الديني
3. المرتكز التاريخي

وذلك إلى جانب تحديد مفهوم الأسطورة وانقسامها الثنائي (ذكر/ أنثى).

ويؤكد عبد المجيد حنون هذا الاختلاف القائم بين الأساطير الذكورية والأنثوية من خلال نشوء خطاب نسوي مناقض للخطاب الذكوري، وبالتالي نشوء كتابة أنثوية مضادة للكتابة الذكورية.

وقد أدى ذلك إلى تحول أسطورة شهرزاد من شهرزاد الأَمَة الخادمة المطيعة إلى شهرزاد السيدة المتحكمة في مصير شهريار، كما يتجلى ذلك في الكتابات الأنثوية المعاصرة.

وتطرح نسيمة عيلان قضية رحلة الأجناس الأدبية، واختراقها آفاق ثقافية غير التي نشأت فيها، كدأب إلياذة هوميروس التي تلمّست حضورها في أدب النوبة كما يتجلى في بحثها الموسوم بـــ (حضور إلياذة هوميروس في أدب النوبة بمصر).

ويؤكد عمار رجّال هذا الانفتاح من خلال استلهام **سعد الله ونوس** في مسرحيته "السراب" أسطورة **فاوست** وبالتالي شيطانه **مفستوفيليس** رمز الشرّ للكشف عن معاناة الشعوب العربية من ظلم حكامهم.

وحظي التنظير النقدي بجملة من الأبحاث، منها ما هو خاص بالنقد العربي قديما وحديثا، وعالجت الأبحاث الأخرى قضايا نقدية عامة.

كشفت نورة جبلي من خلال بحثها الذي عنونته بـــ (الممارسة النقدية عند الآمدي من خلال كتابه الموازنة بين الطائيين) عن نضج النقد العربي من خلال التأسيس النظري والإجراء العملي، كما يتضح من موازنة الآمدي الذي يعد أحد الوجوه البارزة في الحركة النقدية في القرن الرابع الهجري.

وأبرز بحث ماجدة بن عميرة (أبعاد التوظيف التراثي عند طه حسين) أهمية هذا التراث واستمرار إشعاعه في العصر الحديث.

ويؤكد حفناوي بعلي تطور الحركة النقدية بعد طه حسين حين يكشف عن تعدد جهود الناقد **عز الدين المناصرة** كما يدل بحثه (عز الدين المناصرة ناقدا أدبيا وثقافيا ومقارنا)، ويدل النقد الثقافي عن ملاحقة الجديد الناشئ في الساحة النقدية.

ويدل بحث الطاهر روابنية (حدود الأدبية) على تمايز الحقل الأدبي عن الحقول المعرفية الأخرى، حيث يدل مصطلح الحدود على انغلاق النسق الثقافي الأدبي.

وينقسم هذا النسق الكبير إلى مجموعة من الأنساق الصغرى المتمايزة، تؤدي إلى نشوء الأجناس الأدبية المتمايزة فيما بينها تمايز الصورة السردية في قصص الأطفال كما تلحّ على ذلك عائشة رماش في بحثها الموسوم بـــ (مكونات الصورة السردية وموضوعاتها في أدب الأطفال).

وفي سياق تمايز الأجناس الأدبية تربط نجاة عرب الشعبة في بحثها (الفن الروائي وفعالية المصطلح النقدي) بين تطور الفن الروائي وتكثّر المصطلح النقدي، وهذا نتيجة طبيعية لتعدد المذاهب الأدبية واختلاف المناهج النقدية، وهو الأمر الذي يبرزه بحث صالح ولعة الموسوم بـــ (القراءة والتأويل) هذا المنهج الذي يعطي سلطة للمتلقي، ويمثل ثالث محطة في سياق تطور المناهج النقدية حديثا، التي مرت بمرحلة منظومة المناهج السياقية التي تعطي سلطة للمرسل وسلطة للنص، ثم سلطة للمتلقي.

ولم يبق هذا التوجه حبيس البحث النظري، بل طبق على العديد من الأجناس الأدبية كما يتجلى في بحث إسماعيل بن صفية الموسوم بـــ (سيمياء الفضاء المسرحي) حيث يتلقى المتلقي رسائل من الركح سمعية وبصرية تتعدد بتعدد المسرحيات، يعمل على فك شفراتها وتأويلها وفقا لمنظوره الخاص.

وهكذا تتنوع القراءات بتنوع القرّاء على غرار ما يظهر في بحث أحمد ياسين العرود الذي عنون بحثه(تحولات العشق، قراءة في قصيدة لمحمود درويش) وقد اجتهد الناقد في سبر أغوار هذه القصيدة وإنارة المناطق المظلمة.

وتبرز فتيحة سريدي موقف الآخر (الغرب) من إنجازاتنا الثقافية، وحاولت إماطة اللثام عن عناصر الجذب التي دفعت الآخر إلى الإقبال على تلقي موروثنا في مظاهره المختلفة الأدبية وغير الأدبية، وهو ما يغري بالمزيد من التأمل في هذا الموروث.

إن أول الغيث قطر، ونأمل أن يكون هذا العدد أول قطرة سينهمر بعدها الغيث.

رئيس التحرير

د. محمد بلواهم

المستشرقون ودراسة الأدب العربي

أ. فتيحة سريدي

جامعة عنابة

يـــدخل اهتمام الاستشراق بالأدب العـــربي، عبر عصوره المختلفة في إطار اهتمامه بالثقافات الشرقية على كثرتها وعلى اختلافها، وهي عناية أقل ما يقال عنها إنها، وبغض النظر عن الخلفيات الايديولوجية والعقدية، خدمت فعلا الأدب العربي، وحفظت الكثير من النماذج و النصوص الأدبية من الزوال والضياع وذلك بتطبيق مناهج وأساليب علميـــة مكنت من الإحاطة بطبيعة الحياة الأدبية والفنية عموما التي سادت العلم العربي في القرون الماضية "يدخل العالم الإسلامي والعربي في إطار التاريخ العام، ومن المنطقي أن نكون على علم بتطور الأدب العربي الذي لا يجب أن يشكل غنيمة مقتصرة على المختصين" (1).

لقد مهد المستشرقون، بأبحاثهم و دراساتهم عن الدب العربي، الطريق أمام ميلاد دراسات و أبحاث أخرى في الشرق الإسلامي عموما والعالم العربي على وجه الخصوص، وآثارهم في هذا المجال لا زالت ممتدة إلى يومنا هذا، واتخذها الجيل الجديد منطلقا له في إرساء دعائم جديدة للبحث العلمي. وإن اعترت أعمالهم بعض النقائص أو لقيت انتقادات فذلك لا يحوم دون الاعتراف بصنيعهم واجتهادهم الأكيد في التنقيب، والبحث، وإصدار الأحكام . وهـــذه الرؤى الاستشراقية التي وإن خلت أحيانا من الموضوعية، وانساقت وراء أهواء و أغراض ذاتية، كانت هي الأخرى منطلقا لإعادة النظر في تراثنا القديم، والكشف عن مواطن الزيف التي حاول بعض المستشرقين إرساءها، وذلك بتقديم الحجة والبرهان لبيان عكس ما ذهبوا إليه (أي المستشرقون) " إن

الدراسات الأدبية، وتاريخ الأدب التي نعرفها اليوم هي أثر من آثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم " [2] .

وللمستشرقين أيضا فضل كبير في تحقيق النصوص، والمقارنة بينها، والتمييز بين صحيحها وزائفها في حضور معطيات وقرائن شكلت عندهم أدوات للبحث، ووسيلة للوصول إلى الحقيقة العلمية، وهي خطوات لا بد منها سواء أكان البحث متعلق بأدبهم المحلي أو أدب غيرهم من الشعوب " وقد اهتم بعض منهم بإحياء التراث الأدبي واللغوي، والتاريخي، وحققوا كتبا ضخما تشبه المجامع العلمية تهتم بالبحث والدرس، والتحقيق، والتعليق " [3].

يكون لنا اهتمام المستشرقين على هذا النحو قناعة مفادها أن دائرة هذا الاهتمام تعرف اتساعا واضحا يوما بعد يوم مع تجديد في المناهج والأساليب التي تتجدد مع تجدد الحياة الأدبية وتطورها في العالم العربي.

1-أسباب اهتمام الاستشراق بالأدب العربي

إذا تساءلنا عن الأسباب و الدوافع الكامنة وراء اهتمام المستشرقين المبالغ فيه، بالأدب العربي، و إفراد الجهد، و الوقت، و المادة في سبيل دراسته وتحقيقه والحكم عليه، نجد أن هذا التساؤل كثيرا ما راود المفكرين في الشرق والغرب على حد السواء.

ويمكن أن نطرح السؤال على النحو الذي وجدناه عند " عائشة عبد الرحمن " حين قالت " ما الذي أغرى الغرب الحديث بمتابعة البحث في تراثنا بعد أن أدى غرضه في خدمة عصر الإحياء، وصار للغرب الدور القيادي للحضارة المادية والعلمية، هل يفتش فيه عن شيء يحتمل أن يكون (...) ؟ أو هل يرى فيه ميراثا إنسانيا من حقه أن يصان و ينشر ما دام أهله قد نبذوه و أضاعوه " [4] .

يمكننا تبين أسباب هذه العناية انطلاقا من طبيعة الأدب نفسه، والظروف العامة التي ولد فيها وتطور إلى أن أصبح على النحو الذي نراه اليوم. كما يمكننا طرح مجموعة من التساؤلات قد تقودنا إلى الفصل في هذا الموضوع من ذلك مثلا: ماذا يكشف لنا الأدب ؟ و من وجهة نظر مقارنية يمكننا أن نتساءل : هل من أثر خلفه الأدب العربي في الآداب الأخرى دفعت بأصحابها إلى تبين مواطن هذا التأثير ؟ و هل يمكن على وجه التقريب أن نحدد مكانة الأدب العربي ومنزلته عند الشعوب الأخرى ؟ وما هو الظرف الحضاري الجديد الذي عرفه الغرب مواكبا لحركة الاستشراق العلمية ومؤثرا في الأدب ؟ وانطلاقا من هذه التساؤلات جميعها يمكننا تحديد أسباب هذا الاهتمام في النقاط الآتية :

2-استجلاء صورة الشرق من خلال الأدب :

إذا كان الأدب يعبر عن شخصية مبدعه التي تتصارع فيها الأحاسيس، وتتداخل فيها المفاهيم، فهو لابد أن يرجع لعبر عن المجتمع الذي يعيش فيه. إن الأديب نموذج أو عينة بسيطة يتكرر وجودها في المجتمع زمانيا ومكانيا، ومن خلال قراءة هذه الآثار الأدبية يمكننا أن نتبين صورة المجتمع، و طبع أفراده، و أساليب تفكيرهم، وطرق معيشتهم ... نظرا لما فيها من عناصر ومكونات استقاها الأديب من البيئة الاجتماعية ووقف منها موقف المصور والناقد في أن واحد، إنه فعل فردي، ولكنه أيضا فعل اجتماعي للفرد، فالطابع الجوهري والأساسي للمصنف الأدبي أن يكون ذلك التواصل بين الفرد و الجمهور "[5].

لا يعبر الأديب عن تجربة خاصة وفردية، بقدر ما يحاول أن يعبر في مصنفاته عن واقع اجتماعي في مختلف أبعاده، والذي تختلف مسائله من حقبة إلى أخرى، فمتى ظهرت هذه المسائل جميعها في المصنفات الأدبية الشرقية، فإنها تكشف عن الواقع

الشرقي في مختلف أطواره، و تفاعلاته مع الأطراف التي أسهمت في حدوث التغييرات، وكذا تقدير ردود أفعاله إزاءها "والمصنف الأدبي هو التعبير عن نظرة للعالم وعن وجهة نظر إلى مجموع الحقيقة التي ليست واقعا فرديا بل واقعا اجتماعيا (...) والكاتب يدرك هذه النظرة، و يشعر بها، ويعبر عنها، ولكل حقبة من الزمن مسائلها العامة الملائمة للتركيب الاجتماعي " (6).

لذلك كله كان أهم مجال نشط فيه الاستشراق الأدبي هو تاريخ الأدب العربي الذي حاول المستشرقون من خلاله التوقف عند الحقبات التاريخية المتتالية باحثين في خصائصها وفي خصائص العقلية العربية الإسلامية التي ظهرت جلية في ما كتبه العربي من أشعار، ونصوص نثرية مختلفة انعكست فيها طبائع شخصيته، وأسلوب تفكيره، وكذا ملامح من البيئة التي ولد فيها هذا الأديب، وعبر عنها بأساليب وفي قوالب شتى.

ويعكس الدب العربي القديم بحق مظاهر الحياة العربية، وينقلها لنا بكل إتقان، وروعة، وفنية راقية أيضا، شهد له بذلك كل من تناوله بالدراسة والتحليل. فما أن تقف عند حقبة زمنية من تاريخ الأدب العربي، إلا و تجد مظاهر الحياة المختلفة منعكسة فيه، من ذلك مثلا شعراء المعلقات في العصر الجاهلي، فهي تعد – بغض النظر عن الشك في نسبتها إلى الجاهلية – من أروع النماذج التي أبدعها الفرد العربي، ففي كل مقطع منها يقدم لنا الشاعر تصويرا عن البيئة التي عدها قاموسه الذي يأخذ منه مادة شعره . لقد صور لنا الشاعر هذه البيئة في جذبها وفي خصبها، كما جعلنا نتبين طبيعة العلاقات التي سادت مجتمع القبيلة، وما فيها من تناحر و حروب، و فوق كل هذا وذاك نجد أن هذا الأديب يعكس نفسية قائله الذي يعد مثالا يتكرر وجوده في المجتمع كما أشرنا سابقا . كذلك الشأن مع شعر الفتوحات الإسلامية، كما نجد ملامح الحياة العربية في الشعر الأموي، ولا سيما في شعر النقائص الذي يعد وثيقة دقيقة تكشف بوضوح عن العقلية العربية في العصر الأموي، والأمثلة على مدى انعكاس البيئة في الأدب كثيرة . و يقودنا

هذا الكلام إلى الإشارة إلى تلك العلاقة الكامنة بين تاريخ الأدب وعلم الاجتماع من جهة و بين هذين المجالين وعلم الاستشراق من جهة أخرى.

لقد استفاد المستشرقون من علم الاجتماع في تاريخهم للأدب العربي وفق مناهج علمية تؤمن بأن المعارف الإنسانية لابد وأن تتكامل فيما بينها للوصول إلى اليقين (النسبي) لا سيما وأن المجالات الثلاثة السالفة الذكر تربطها صلات وروابط يصعب الفصل فيما بينها على نحو يجعل كل واحد منها قائما بذاته " لقد تساءلت أولا فيما إذا لم يكن لنا قبل الآن كفاية من الأعمال المستعجلة في التاريخ الأدبي دون أن نتخلص من الطموحات الاجتماعية، فكم من عصور وكم من كتاب بقوا مجهولين ، وكم من سير شخصية يبقى إنجازها قائما، وكم من جيل وتحولات في بعض الأشكال الأدبية لم تدرس على النحو الكافي " [7] . فالاستشراق الأدبي بحاجة ماسة ومتواصلة على نتائج علماء الاجتماع لتكون له عونا في تاريخه للأدب الشرقي عموما والعربي خصوصا .

ويكفي فقط أن نقول إن بعض القضايا الأدبية القديمة لم يفصل فيها بعد، ويتأكد لنا يوما بعد آخر ضـــرورة تكامل العلوم للبث في هذه القضايا وإصدار ذلك الحكم الذي قد يقبله العقل ولو بنسب متفاوتة.

ويبقى الأدب على امتداده وسيطا من الوسائط الهامة والفعالة التي أتاحت للمستشرقين معرفة جوانب كثيرة من الشرق، لأنه بمثابة وثيقة ترسم فيها دقائق وجزئيات و تفاصيل لصيقة بالمجتمع الرقي الذي ظهر لهم على أنه يتميز بخصائص وله ثوابت كان للأدب فضل كبير في إبرازها و في إحاطة الغرب معرفة بها. وقد استعان المستشرقون في اتخاذهم للأدب وسيلة لاستجلاء صورة المجتمع الشرقي بما توصلت إليه المعارف الأخرى من نتائج خاصة منها علم الاجتماع، لأن الأدب في صورته العامة ظاهرة اجتماعية يصدر عن المجتمع ليعود و يعبر عنه في قوالب شتى. وقد كان من نتائج

هذا اللقاء بين الاستشراق ومناهج العلوم الأخرى، تدعيم الدراسات الاستشراقية وإرسائها على دعائم علمية استفاد منها الطرف الشرقي، والطرف الغربي على حد ذاته.

3-دعوة المذهب الرومانتيكي إلى الاهتمام بآداب الأمم الأخرى :

إن ميلاد الاستشراق سواء أكان فكرة أو علما كان أسبق في الظهـــور زمانيا مقارنة بالمذهب الرومانتيكي الذي ظهر حوالي نهاية القرن الثامن عشر. وانطلاقا من هذا المنظور لا يجوز لنا الحديث عن تأثير حركة متأخرة زمانيا (الرومانتيكية) في أخرى متقدمة (الاستشراق). ولكن يمكننا القول عن الرومانتيكية، وإن لم تكن من الدوافع الأساسية و الجوهرية في ميلاد الاستشراق كما هو الحال بالنسبة إلى الدافع العلمي والدافع الديني، إلا أنها كانت من العناصر التي دفعت بالمستعربين إلى الالتفاف حول آداب الأمم الأخرى، و الشعوب الشرقية على وجه التحديد. لقد أثرت الرومانتيكية في تحديد سيـــر الاستشراق الأدبي مجالا معرفيا يهتم بآداب المم الشرقية، ويسعى إلى البحث في طبيعتها وكذا في الروابط التي تربطها بغيرهـــا من الآداب. وعلى اعتبار الاستشراق حركة متقدمة كما أشرنا، فإنها أسهمـــت في التفات الغرب نحو الشرق، ولا سيما الرومانتيكيين منهم انطلاقا مما قدمه للغرب من صور، وانطباعات عن العالم الشرقي، فظهر لهم أنه عالم السكينة وعالم الهدوء والروحانيات الذي بحث عنه الفرد الغربي في موطنه فلم يجده، فاتجه بأنظاره صوب الشرق عله يعثر على ضالته " من هنا نجد فرار الرومانتيكي بروحه وخياله من بيئته وحاضره على بيئات يحلم بها أو إلى ماض يطلب فيه العزاء أو مستقبل يخلقه لنفسه " [9].

إن الظروف العامة التي سادت أوروبا قبل القرن الثامن عشر، وقبل ميلاد المذهب الرومانتيكي جعلت الفرد لا يحس بإنسانيته، و لم يرق إلى هذا المستوى بعد نظرا إلى القيود والقوانين الجائرة التي تفرض عليه وليس له سوى الانقياد وتطبيق ما يمليه عليه

رجال الدين والكنيسة " فنظم مجتمعه أفسدت الطبيعة الخيرة في الإنسان، فلم تتوفر له حرية التعبير عن الإرادة العامة ذات الطابع الإنساني العالمي، ولهذا أساء الرومانتيكيون بمجتمعه الظنون " [10].

ومع تطور وعي الإنسان، وشعوره الأكيد بضرورة إحداث تغييرات جدرية في المجتمع، وإحقاق الحق والعدالة، ظهرت هناك دعوات في مجال السياسة وأخرى في مجال الأدب تسعى إلى تحقيق التحـــرر بمفاهيمه الواسعة، والنهوض بالمجتمع، ويكفينا دليلا على ذلك أن مصطلح ليبرالي ورومانتيكي تزامنا في الظهور، واشتركا في الغايات والأهداف مع اختلاف في الوسائل لتحقيق هذه الأغراض" وما يسمى حركة رومانتيكية فيما جرت به العادة، لم يبدأ إلا حوالي 1815 بعد سقـــوط نابليون وذهاب دولته، فقد كان الأدب والسياسة في فرنسا مترابطين إلى درجة لا نعلم لها مثيلا في الأمم الأخرى فأصبح اصطلاح رومانتيكي وصفا مرادفا لليبرالي في واقـــع العمل والتطبيق " [11].

عن الحركة الرروماتيكية بدعوتها إلى التحرر تحاول أن تعيد بناء مجتمع أهم ما يسمه هو العدالة و الرقي بالإنسان وتحريره من قيوده، وليس في دعوتها ما يدعو إلى الفوضى أو العودة إلى حياة الغاب والكهوف وإنما الغاية كما أشرنا هي بناء مجتمع يقوم على ركائز تتسم بهذا التعاون و الإخاء بين أبناء البشر في مختلف الأصقاع والزمان " فالرومانتيكيون ينقمون من المجتمع لما فيه من مظالم ولا يدعون من وراء ذلك إلى الفوضى الفردية ولا إلى الوراء و لكنهم يدعون إلى خلق فطري تتوافر به سعادة لأبناء وطنهم أو لأبناء الجنس البشري" [12]. لقد كانت هذه المفاهيم والمواقف واضحة في أدب أدباء الرومانتيكية وأكدت في مرات عديدة على ضرورة التخلي عن هذه القيود ومحاربتها لأنها هي التي أسهمت في بناء المجتمع الأوروبي على نحو تمحي فيه خصائص الإنسان . فالأدب الحقيقي في نظرهم هو ذلك الذي يعبر بحرية وطلاقة عن موقف صاحبه إزاء الحياة والمجتمع غير آبه بتلك القيود أو تلك القوى التي تحدد من صدقه ومن

دعوته إلى ضرورة العودة إلى الإنسانية الأولى في صفائها وفي نقائها بعيدا عن هذه القيود والعراقيل الواجب محاربتها بأفكار الليبراليين، وأدب الرومانتيكيين " منذ مطلع القرن الماضي والرومانتيكيون يجمعون أو يكادون على أن الأدب الصحيح هو أدب التحرر (...) وأدب الكشف والريادة، فطفقـــوا ينعون على الناس قيودهم، وعلى المجتمع نظمه وتفكيره، فكانوا أو ثائر به في العصر الحديث" [13].

يسعى الرومانتيكيون – انطلاقا من هذا المفهوم إلى تحقيق مفهوم إنساني للأدب وضرورة خروجه من إطاره الخاص به إلى أطر ومناطق أخرى، لأنه يعبر عن مكونات وخلفيات وغايات تشترك فيها الإنسانية جمعاء. ففي مذهبهم هذا دعوة صريحة إلى ضرورة مساندة البشر لبعضهم البعض وتخطي العقبات والعراقيل التي تحول دون تحقيق هذا المفهوم "و هكذا انتقل عبء الإنسان، و أصبح هو الموكل بأمر شقائه وسعادته أو حريته وعبوديته، أو ظلمه وعدله، أو جوعه وشبعه ، وما شابه ذلك من القضايا التي أصبحت ترتد إلى النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية " [14].

وإن ثارت الرومانتيكية على وضع اجتماعي معين ساد أوروبا فإن ثورتها هذه ما كانت إلا النواة الأولـــى لتحقيق مفهوم إنساني عام ونخص بالذكر تحقيقه في مجال الأدب و الفنون، فأصبح محور الإنسانية والرقي بها من أهم انشغالات المفكرين والأدباء على حد سواء " وانتقل التقديس إلى الإنسانية نفسها فكان من العبارات المترددة على ألسنة رجال الثورة " الإنسانية المقدسة ومولانا الجنس الإنساني " وأخذت الثورة الرومانتيكية بذلك طابعا شاملا فلم تبق محصورة في حدود ثورة الفرد على قيود المجتمع بل تناولت كل شيء حتى العقائد السماوية " [15].

أسهمت دعوات الرومانتيكيين هذه في شد انتباه المستشرقين للأدب العربي، وكشفت لهم عن وجود صلت بين الأدب الغربي والأدب العربي لا سيما على مستوى المفاهيم والمواقف العامة من الكون والإنسان، وأنه لا يجب بأي حال من الأحوال الإيمان

بوجود فواصل و حواجز بين آداب الشعوب المختلفة لأن الأدب الحقيقي هو ذلك الذي يخرج عن إطار الجغرافي ليتناقل و يتداول عند الأقوام و الشعوب الأخرى كاشفا لها عن تجارب خصت مجتمعا ما قد يتكرر وجحودها في مجتمعات أخرى . ومن خلال ذلك يدعو إلى وجود تعاون فكري و أدبي بين الشعوب و تحقيق ما يسمى بعالمية الأدب. وهذا المصطلح يعني " (...) خروج الآداب من حدودها القومية طلبا لكل ما هو جديد مفيد، تهضمه و تتغذى به، و استجابة لضرورة التعاون الفكري والفني بعضها مع بعض لها أسسها العامة التي تحدد سيرها " (16).

لقد كان التفات الرومانتيكي إلى الشرق – وانطلاقا من تحليلنا السابق – بسبب دافعين اثنين : الأول: هو بحثه عن موطن للقرار يسوده احترام الإنسان وإنسانيته، وهذا الموطن تجسد في الشرق الإسلامي الذي ظهر له بأنه عالم المثل والقيم حيث تتميز الحياة فيه بالسكينة في ظل عقيدة سمحة، وهذا الوضع يختلف تماما عن الوضع الذي عرفه المجتمع الأوروبي آنئذ.

من هنا أصبح الشرق مادة خصبة في أدب الأدباء يستوحون منه بعض الصور، ويستلهمون بعض المفاهيم "وكان هناك الكثير من أدباء فرنسا ممن استوحوا المنابع الثقافية العربية والشرقية (*) مثل فكتور هوجو، ولامرتين، وألفريد دو فيني، وتيوفيل غوتيه وغيرهم " (17).

أما الدافع الثاني فيتمثل في إيمان الرومانتيكي بوجود مجتمع إنساني واحد يشترك في مجموعة من الخصائص، ويعرف ظروفا قاهرة تسيء إليه من حين إلى آخر. لذلك لا يجب الإيمان بوجود حدود فاصلة بين الشعوب والآداب "وفي هذا المجال، مجال التجارب في الميول والاتجاهات الفنية والفكرية تنمحي ويتأثر بهم أنه بصدد من يشبهـــون مواطنهيم لكثرة ما بينه وبينهم من تشابه بل إنه يشعر أنهم مشاركوه في وطنه المثالي (18)".

لقد أسس الرومانتكيون مذهبهم انطلاقا من واقع معاش قادهم إلى رصد مجموعة من المفاهيم، كان من أهم نتائجها تركيز المستشرقين على آداب الأمم الأخرى، وظهور دراسات أفردت لهذا الشأن عينت بالبحث في آداب الأمم الشرقية، وفي مكوناتها وخصائصها وأساليب تعبيرها عن المجتمع الشرقي وغيرها من القضايا التي سيأتي الحديث عنها لاحقا . ومن هنا أصبحت مهام المستشرق الأدبي هي الكشف عن الأدب العربي، و تقديم وثيقة كاملة عنه للباحث الغربي، يكتشف من خلالها تطور الأدب العربي أو بالأحرى تطور الذوق الفني عند العرب في حقـــبات زمنية متتالية "إن المتتبعين لقضايا اللقاء الأدبي بين أوروبا والعالم العربي، يولون اهتماما بدور المستعربين والمستشرقين الذين كان لطائفة منهم فضل واسع في تعريف مختلف التيارات الأدبية في أوروبا بنتاجات العرب خاصة والشرقيين عامة " [19].

فالاستشراق الأدبي على النحو المنظم الذي نراه اليوم كان إحدى ثمرات الحركة الرومانتيكية التي استطاعت بما دعت إليه معالم الإنسانية فيه وصلته بالآداب الأخرى.

4- تأثيـــر الأدب العربي في آداب الأمم الأخرى :

تعدّ ظاهـــرة التأثيـــر والتأثر بين الآداب المختلفة من العوامل الأساسية التي وجهت أنظار المستشرقين إلى الاهتمام بالأدب العربي نظـــرا لما وجدوا من ملامح عربية كثيرة في الآداب الغربية يظهر من خلاله مدى تأثر الأدب الغربي بالثقافة الشرقية والإسلامية عموما التي أصبحت تشكل بالنسبة إلى الأديب الغربي مورده الخصب الذي يستقي منه صورا ومضامين تخرج أدبه على نحو لم يعهد في البيئة الأدبية الغربية. وهذا يدلنا على مدى إيمان الغرب واقتناعه بأن أساس تطوره الفكري والأدبي لابد وأن تكون ظاهرة التأثير و التأثر إحدى دعائمه الأساسية، وأن الاستفادة من تجارب الغير المختلفة قد تسهم في تحقيق بناء حضاري، وكذا لقاء فكري بين الأمم "ولهذا اقتطفنا دائما كل

أفكار الأمم و عاملناها على أنها أفكارنا، ورشحناها، وأنسناها، لتوزيعها بعد ذلك في كل أوروبا و في العالم كله" [20].

لقد أدخل العرب مفاهيم ومضامين أدبية على الأدب الأجنبي وهو دور لا يمكن إنكاره، لأن مظاهر هذا التأثير واضحة في أدبهم، وكم من دراسة مقارنية أفردت في هذا الباب للدلالة على مدى تأثير الأدب العربي في الآداب الغربية، تنتهي جميعها إلى تأكيد هذه الحقيقة التي و عن أسهمت في بلورة مفاهيم و مضامين أدبية جديدة، فإنها أسهمت من جانب آخر في رفاهية الشخصية الغربية وإخراجها من بوتقتها الخاصة بها إلى عالم آخر حررها من قيود انحدرت من العصور الكلاسيكية القديمة وأحاطتها بعالم جديد عثرت فيه على ضالتها "ومن يعلم، فبدون هذه التأثيرات التي وفدت إلينا من الخارج لبقينا في درجة أدنى للغاية" [21].

لقد وصل التراث الأدبي و العلمي العربي إلى أوروبا، وأصبح يشكل مرجعا هاما بالنسبة إلى الأوروبي يستعين به في فهم ما استعصى عليه و صياغة أدب، و إبداع فن على النحو الذي رآه مع العربي، فكأن المصادر التي يستقي منها الأوروبي أدبه وفنه قد نضبت و لم تعد صالحه لأن تكون المورد الأساس في أدبه، فسعى جاهدا إلى البحث على أخرى فوجد أمامه التراث العربي الإسلامي الذي نظر إليه تارة بعين الإعجاب وتارة أخرى بعين الدهشة و وجد فيه سبيلا إلى التحرر من قيود طالما لازمته وحدت من مواهبه وطموحاته " فالوظيفة الثانية للآداب الأجنبية ليست بقليلة الأهمية، لأنها وفي فترات كثيرة أعادت لنا الحق في أن نكون "نحن" أكثر من مرة، فتأثيـــر الوافد من الخارج كان تحرريا" [22]. من هنا كان إيمان الغرب قويا بضرورة الاعتراف لما لعلاقة التأثير و التأثر بين الآداب من دور فعال في ترقية الآداب وفي إدخال مفاهيم جديدة إليها، و أن تحقيق الريادة الفكرية والأدبية لن يتحقق إذا كان الإيمان بضرورة التمسك بمبدأ المحافظة والعودة إلى الأصـــول هو عماد الحياة الأدبية والفكرية عموما. إن الإغلاق

التام على النفس وعدم فتح الأبواب واسعة أمام تيارات أجنبية ذات الطابع الإيجابي قد يحقق مفهوم العزلة في مختلف أبعادها وخلق هوة شاسعة بين الأمم وقطع هذا التواصل الحضاري الذي يعد ضرورة من ضرورات العصر "فهل يمكن أن يكون لنا هذا الدور التاريخي الذي يمثل مجدنا، إذا كان لدينا الهم الخيالي والسخيف في أن نبقى نتميز بالصفاء و الكبرياء (...) و أن لا نخلط فكرنا بفكر الشعوب الأخرى، وأن نعطي دون أن نتلقى" (23).

إن عنصر التأثير والتأثر بين الآداب لا يمكن إنكاره، ولا سبيل منطقي إلى ذلك، لأن طبيعة الدب نفسه تقر هذا المبدأ، وما من أدب عرف الخلود والبقاء، واعترف بأدبيته، إلا وكانت له صله بشكل أو بآخر بآداب أخرى أجنبية عنه لأنها تشكل عالما من الأفكار و الرؤى، والأحاسيس التي تؤثـــر في الأديب وأدبه. والمتفق عليه أن هذه الآداب التي وصلت إلينا من الماضي القديم تحمل في ثناياها مظاهر كثيرة تؤكد تأثرها بغيرها من الآداب وكذا تأثيرها فيها "إننا إيطاليون، وإغريق، ولاتين، وإسبان، قبل أن نكون نحن في أكبر أعمالنا الكلاسيكية (...) و نفتن بعد ذلك (...) بألمانيا الحالمة " (24).

وفي مجال البحث عن تأثير الأدب العربي في الآداب الأجنبية فإن العلاقة مثبتة تاريخيا انطلاقا من النصوص الأدبية التي استوحى فيها أصحابها بعض الصور والمضامين الأدبية الشرقية و الإسلامية، والأدلة على ذلك كثيرة سنتعرض إلى بعضنا لاحقا "لقد حفل أدبنا العربي بكثير من مآثر التراث التي شعر نورها، وانتشرت خلال الآداب العالمية منذ القرون الوسطى حيث كانت الحضارة العربية الإسلامية ترفد أوروبا بمزيد من ذخائر العلوم و الثقافات، مما جعل هاتيك البلدان تعكف على دراسة ذلك التراث وترجمه على لغاتها القومية مستوحية منه ما كان لها أساس للدراسة و المناقشة" (25).

فالوجه التي سارت فيها الآداب والدراسات الغربية اتخذت مسارا آخر وغاية أخرى – كما سبق و أن أشرنا – وقد ورد ذكر ذلك في مؤلفات عديدة أخذ أصحابها بسحر الشرق و بعظمته سواء أكانت هذه المؤلفات دراسات وصفية – للشرق تبحث في مكوناته وخصائصه على اعتباره عالما يختلف تماما عن الغرب، أو مؤلفات أدبية وصف فيها أصحابها بلغة فنية ما رأوه أو سمعوه عن الشرق "ويذكر فيكتور هوجو في مقدمة ديوانه المعروف باسم الشرقيات أن العالم بعد أن كان في عصر لويس الرابع عشر مقبلا على الدراسات الإغريقية أصبح في عصره مقبلا على الدراسات الشرقية. وقد تعرض في هذا الديوان إلى ذكر أكثر مدن الشرق المشهورة، وأفاض في ذكر مدن إيطاليا، و إسبانيا، إذ كان يعتبرها من مدن الشرق لغلبة الطابع الشرقي عليها" (26).

إن الأمثلة على مدى تأثر الأدب الغربي بالأدب العربي كثيرة يمكن أن نستشفها انطلاقا من تطبيقنا للمنهج المقارن الذي سيكشف لنا عن تلك المواطن التي تأثر فيها الأدب العربي و في هذا الحالة تكون النصوص على اختلاف لغاتها وبيئاتها، السبيل الوحيد لتأكيد هذا المذهب لأن هناك من الدارسين الذين ينتمون إلى بيئات غربية ينفون وجود تأثير عربي في آدابهم على الرغم من أن حجتهم في ذلك واهية لا يقبلها العقل لأنها لا تستند إلى قرائن و أدلة تؤكد مزاعمهم، و ربما يرد ذلك إلى تعصبهم، وإلى لإيمانهم بنقاء آدابهم و عدم امتزاجها بغيرها من الآداب، و أنها من خلق عبقرية غربية فذة، لم يكن لتأثيرات وافدة عليها أي دور في وجودها على نحو خول لها الخلود على مر الزمان . و من هؤلاء نذكر على سبيل المثال "ارنست رينان Ernest Renan " الذي تميز بكونه مستشرقا لا يسعى إلا للحط من كل ما هو شرقي و سامي أو بتعبير آخر تميز بموقفه العنصري والعدائي للشرق وفي عرفه " (...) أن اللغة السامية ظاهرة أعيق تطورها و توقف بالمقارنة مع اللغات والثقافات الناضجة للمجموعة الهندو أوروبية، بل حتى بالمقارنة مع اللغات الشرقية السامية الأخرى. بيد أن المفارقة الضدية التي يعززها رينان

(Ernest Renan) هي أنه فيما يشجعنا على معاينة اللغات بوصفها تتطابق بطريقة ما مع موجودات الطبيعة السامية، لا عضوية، متعطلة النمو (...) وعاجزة عن أن تجدد حيويتها و قوتها ، و بكلمات أخرى يبرهن رينان على أن اللغة السامية ليست لغة حية وأن الساميين في نهاية ليسوا مخلوقات حية" [27].

أما إذا شئنا أن نحدد الجناس الأدبية العربية التي تأثر بها الأدب الأجنبي، فإننا نجدها واضحـــة المعالم، وباتفاق أغلب الدراسات في الشرق والغرب "(...) في جانبين هما الشعر والقصص، فقد كان لكليلة ودمنة الذي ترجم في عهد الفونسو الحكيم تأثير على جنس شعري أوروبي وهو الفابليو، وهو قصة شعرية شعبية انتشرت في فرنسا في العصور الوسطى وكان لألف ليلة و ليلة تأثير على عشريات بوكاشيو التي كتبها في القرن الرابع عشر" [28].

ففي ذلك دلالة على أن للأدب العربي أثر في الأدب الغربي سواء في جانبه الشعري أو في جانبه النثري ولا سبيل إلى إنكار ذلك ، ولا يجب اعتبار ذلك من باب الصدفة أو توارد الخواطر لا سيما وأن البحث المقارن كشف انطلاقا من قرائن كثيرة عن وجود هذه التأثيرات وتأكيدها تاريخيا "ونقطة البدء في البحث هي أن يؤخذ كاتب ما أو جماعة من الكتاب، أو أديب أمة بأسره كمركز إشعاع للتأثير Transmetteur ثم يبحث عن صلتهم بكاتب أو بمذهب أدبي أو بأدب أمة بأسره كمركز انعكاس للتأثير Recepteur " [29].

ويمكننا أن نستبدل على ما ذهبنا إليه بمثالين اثنين أحدهما في النثر و الأخر في الشعر لأن هذا الموضوع متشعب و واسع النطاق لا تسمح طبيعة البحث بتناوله وإعطائه حقه الكامل من الدراسة.

أما النموذج النثري فقد تمثل في قصص "ألف ليلة و ليلة" التي نجد صداها يتردد كثيرا في الآداب الأجنبية واتخذت محورا للعديد من القصص التي عرفت النجاح

والشهرة الأدبية و أصبحت حديث العام والخاص (...) وجدت ألف ليلة وليلة وقصصها التي حملت القراء الغربيين على الحلم بها وأثارت خيال الكتاب ، وشكلت مصدرا خصبا لإلهام مهم" [30]. ولكن السؤال المطروح، لماذا نجحت هذه القصص الشرقية كل هذا النجاح ؟ و ماذا وجد فيها الغرب إلى حد دفع به إلى تقليدها في مضمونها و في محتواها، و ظهور ما يسمى بشرقنة الأدب الغربي ؟ و يمكننا تبين أسباب هذا النجاح و الذيوع في الأسباب الآتية :

أولا : أن اهتمام الغرب بالأدب العربي عامة والقصص بشكل خاص ، يدخل في باب اهتمامه بآداب الشعوب الأخرى و ثقافتها وخلق حوار حضاري و إنساني (...) لم يكن في الإمكان ترك الأدب العربي جانبا، لقد كان لائقا أن يدرك الغرب إسهام الحضارة الإسلامية، وأن يضع بعين الاعتبار شهادة مقنعة لهذه التداخلات الخصبة بين الثقافات " [31].

ثانيا : رأى الغرب أن القصة تعد إحدى الأجناس الأدبية الخصبة التي صور فيها الفرد العربي مناحي وجوانب كثيرة من مجتمعه على عكس ما وجده في أدبه الذي لم يعبر في فترات معينة من تاريخه، غلا على ما يختص بالطبقة المترفة، و تجاهل الطبقات الدنيا والكادحة. وانطلاقا مما وجده الغرب في الأدب الشرقي عموما، ولأسباب أخرى كثيرة، منها تغير الظروف السياسية في أوروبا، آمن الغرب بأن الأدب الحقيقي هو الذي لا يستثني أية شريحة من شرائح المجتمع و يجب عليه تصويرها تصويرا صادقا "(...) إن هذه القصص تمثل الأدب الشعبي بما فيها من تصوير لحياة الطبقات الكادحة وتمثيل لعاداتها وتقاليدها، بينما كان الدب في أوروبا لا يتجه إلى الشعب، ولا يعني بتصوير حياته" [32].

ثالثا : إن الصورة التي وصلت بها ألف ليلة إلى الغرب وما فيها من جمال فني و إثارة دفعت بدراستي الأدب الشعبي في أوروبا إلى البحث بجدية أكثر في القصة الشعبية

الشرقية و منها ليلة و ليلة وخول لهم هذا الوصول إلى اكتشاف خصائص هذه العبقرية التي خلفت هذا الثر الخالد، و السعي على صياغة قصة غريبة على النحو الذي وجد في ألف ليلة وليلة "أثارت ألف ليلة و ليلة بعد أن نقلت إلى لغات الغرب شغفا في نفوس الغربيين بجمع الدب الشعبي ودراسته على نحو لم يكونوا قد بدأوا يحسون الحاجة إليه أو الحافز نحوه، ولكنها من ناحية أخرى قد أثارت في نفوسهم التطلع إلى معرفة هذه الشعوب التي أنتجت هذا الثر الذي دارت حوادث الكتاب حوله" [33].

رابعا : من المؤكد أن عالم الشرق في نظر الغرب في القرون الماضية قد ارتبط بالخيال، والعجائبية وبالسحر، وباطلاع الفرد الغربي على "ألف ليلة و ليلة" تأكد له المفهوم ثانية، فاندفع إلى الاستزادة من هذه القصص التي تقدم له وصفا لعالم كل ما فيه يبعث على الإثارة والدهشة، لأنه عالم غريب عنه لم يسبق له أن شهد مثله من قبل "إن هذه القصص أثارت خيال القراء الأوروبيين و حملتهم إلى أجواء غريبة عليهم يختلط فيها السحر بالغموض، وقدمت إليهم بذلك لونا من ألوان الأدب لم يكن معروفا بينهم[34]".

إن الأسباب التي دفعت بالغرب إلى الاهتمام بالقصص العربي و منها ألف ليلة وليلة قوية، وكان من نتائجها أن ظهرت مجموعة من القصص الغربية التي نلمس فيها مدى تأثر الأدباء الغربيين بالأدب العربي، بحيث صاغـــوا على منواله، واستلهموا من مضامينه الشيء الكثير، واعتبروا ألف ليلة و ليلة ذلك المعين الذي لا ينضب أبدا، يأخذون منه ما أرادوا و يجعلونه متماشيا مع طبيعة العصر والبيئة التي يعيشون فيها، وبصنيعهم هذا أسهموا في تجديد أدبهم من جهة، ومن جهة أخرى أكدوا إيمانهم الشديد بعالمية الأدب و تأثير الآداب فيما بينها "ومن بين الأدباء " (...) الذين استوحوا هذه الليالي، الأديب يوجين سكريب، حين ألف مسرحتين، أولاهما هي (علي بابا)، والثانية هي (المصباح الصغير العجيب). وبالرغم من أن بلزاك كان رائد الواقعية الانتقادية في

أدب القرن التاسع عشر، فإنه قد تأثر هو الآخر بالشرق، فانعكست بعض أجواء ألف ليلة و ليلة على نتاجه الأدبي و خاصة في روايته الجلد المسحور ، وزنبقة الوادي" [35].

لقد سعى أدباء الغرب على تقليد نموذج ألف ليلة وليلة من حيث مضامينها – كما أشرنا- دون التقيد بإطار القصة على النحو الذي وجد في النموذج الأصلي. لقد عمل هؤلاء على تنويع الأطر و الأشكال القصصية، وفقا لما تقتضيه طبيعة العرض، فهناك على تنويع الأطر و الأشكال القصصية، وفقا لما تقتضيه طبيعة العرض ، فهناك الإطار الشعري ، و الإطار المسرحي، و الإطار الروائي "إن علاقة الفن القصصي العربي بالفن القصصي الغربي تظهر فيما يتعلق بالمضامين بطريقة أكثر تعقيدا أكثر منها في التركيب أو أطر القصص" [36]. وكما استهوت ألف ليلة و ليلة الأدباء والعراء وظهرت نماذج أدبية كثيرة تشهد على ذلك، فإنها أثارت أيضا الدارسين الذين صنفوا دراسات أكاديمية تناولت هذا النموذج من جوانب شتى "ومن الدراسات المهمة التي تناولت هذه القصص بحث لشيخ المستعربين " سلفستردوساسي" حول أصل ألف ليلة وليلة و قد قدم هذا البحث للأكاديمية الأدبية في باريس في الحادي و الثلاثين من تموز عام 1829" [37]. اتضح لنا بعد هذا العرض أن تأثير ألف ليلة و ليلة على الأدب الغربي كان واسع النطاق، و كان من الأسباب الهامة التي ولدت اهتمام الغرب بالدب العربي في إطار حركة الاستشراق الأدبي "بل لسنا نبالغ إذا أرجعنا كثيرا من قوة الاستشراق إلى ما ترك هذا الأثر في نفوس الغربيين (...) فإذا المستشرقون بعد أن كانوا يكتفون بما يصل إليهم من كتب عربية أو كتب غربية عن الرحلات وبعض المسائل العلمية، ويحاولون هم أنفسهم أن يزوروا هذه البلاد العربية خاصة والشرقية عامة ويتعرفوا لغاتها وعاداتها" [38].

وما يمكن أن نخلص إليه في معرض حديثنا عن ألف ليلة وليلة وتأثيرها في الآداب الأجنبية هو أنها شكلت فعلا مركزا من مراكز التأثير على هذه الآداب،

وشهدت على خصب الثقافة العربية الإسلامية وقدرتها على التفاعل مع الثقافات الأخرى كما دلت على سعة تراثنا العربي و أهميته الحضارية.

أما عن تأثير الشعر العربي في الشعر الغربي فإننا نلاحظ معالم هذا التأثير واضحة في شعر التروبادرو بحيث وجد وجه شبه بينه وبين الموشحات الأندلسية، وكذا عناصر مشتركة بينهما . وفي هذا الصدد يمكن أن نشير التروبادور، سيأتي عرضها فيما بعد، إلا أن هناك من يعارض هذا المذهب ساعيا إلى إيجاد أدلة لنفي وجود هذا التأثير، وهي آلة لا تكش إلا على مدى تعصبهم و تشكيكهم في دور العرب وتأثيرهم على شعراء جنوب فرنسا (*) . ومن الأدلة التي يمكن إدراجها للدلالة على تأثير الأدب العربي في جانبه الشعري على الشعر الغربي، هو الرجوع إلى الواقع التاريخي الذي يثبت أن الشعر العربي في إسبانيا "قد امتد تأثيره إلى مقاطعة بروفنس في جنوب فرنسا، وقد خضعت هذه المقاطعة فترة للحكم العربي ، فبتأثير الشعر العربي ظهر في هذه المنطقة شعر جديد هو شعر التروبادور" [39]. وهو شعر جديد لم تعرفه أوروبا إلا بعد احتكاكها بالأندلس و اطلاعها على الموشحات و الأزجال العربية، و قد لاحظ شعراء أوروبا ما للقوافي من أهمية كبرى في إضفاء طابع جمالي على الأشعار، و كان الإيقاع الذي تخلفه القوافي في الأشعار من العوامل التي دفعت بشعراء جنوب فرنسا إلى اتخاذ القوافي في نظمهم "و بينما كان الشعر العربي يهتم بالقافية و يلتزمها، لم يكن الشعر الكلاسيكي يعني بها . و قد لاحظ شعراء أوروبا الجمال الذي تضفيه هذه القوافي على الشعر العربي فشرعوا يقلدونه إلى أن شاع اتخاذ القوافي في أشعارهم" [40]. وقد اعتبر بعض المستشرقين، الموشحات مصدر شعر المقطوعات الأوروبي نظرا لهذا التشابه الموجود في كلا التركيبين " هذا النوع من التركيب الذي طور قوافي مختلفة في اللازمة، اعتبره المستشرقون مصدر هذا شعر المقطوعات الأوروبي la poésie strophique في حين بحث اللاتين والرومان عن مصدر التركيب في مجالهم الثقافي " [41]. وبالإضافة إلى وجود

شبه من حيث الشكل العروضي بين الموشحات وشعر التروبادور، نجد هناك شبها آخر من حيث المضمون الغزلي الذي استعارته أوروبا المسيحية من إسبانيا المسلمة بحيث كان في المجتمع الأندلسي مسيحيون يعيشون تحت رعاية الدولة الأموية الإسلامية، يشيدون الكنائس، و يقيمون شعائرهم و صلواتهم بحرية و اطمئنان . فلا عجب إذا امتد تأثير المسلمين على المسيحيين في جوانب أدبية كثيرة منها جعل الغزل على النحو الذي وجد عند المسلمين في إسبانيا محورا لشعرهم " (...) فكان التروبادور مثل شعراء العرب يمجدون العشق باعتباره أسمى ألوان السعادة و مصدرا لأشرف أنواع الإلهام، و لم يقتصروا على الجانب العذري الروحي منه، بل كانوا مثل العرب أيضا يتغنون بالعشق الحسي المصطبغ بصبغة الواقعية مما يعتبر أقوى دليل على الصلة الوثيقة بين الغزل التروبادوري و غزل الأزجال السابقة في الأندلس " [42] . يمكن القول أيضا إن اشتراك شعر التروبادور والموشحات والأزجال في العديد من صور الأسلوب الفنية من البراهين التي تؤكد وجـــود صلة بينهما لا سبيل إلى انكارها " ومن صور الأساليب المشتركة، وصف جمال المرأة الجسدي، فهو لا يختلف عند التروبادور عما جاء في الشعر العربي بعامة (...) فكان التروبادور (...) يعتمد على الحوار، و القصص، والقصص الغرامي، و لا يصرح باسم المعشوقة بل يكتفي بالإشارة ، أو ذكر الكنية و قد يدعوها بلفظ المذكر، و يمعن في إخفاء اسمها الحقيقي لأنه مرتبط بميثاق الكتمان وحفظ سر الحب ..." [43] .

والمتصفح لشعر شعراء بروفنس يخرج بقناعة مفادها أن هؤلاء تجاوبوا مع مجتمعهم، فجاءت أشعارهم معبرة عن التأرجح السائد في بيئتهـــم بين حضارتين مختلفتين تماما : حضارة العرب التي أهم ما يسمها الطابع الإسلامي من جهة ، و حضارة اللاتين وديانتها المسيحية من جهة ثانية . وهي ذلك كله دلالة قاطعة على تأثر الشعر البروفنسي بالموشحات العربية دفعت بالمستشرقين إلى إعادة النظر في هذه الإشكالية

والنظر إليها من زوايا مختلفة استنادا إلى حجج وبراهين تتفاوت في صحتها وقوة قبولها وتصديقها.

كانت هذه الأسباب الرئيسية والفعالة التي دفعت بالمستشرقين على تعاقبهم إلى الاهتمام بالأدب العربي، وهي كما رأينا تنبع جميعها من طبيعة الأدب الذي يعد من جانب تعبيرا عن المجتمع ومصورا له، إذ خلاله اطلع المستشرقون على صورة المجتمع الشرقي . ومن جانب آخر سعيه إلى تأكيد المفهوم الإنساني و العالمي مما يدعو إلى ضرورة تلاحم الآداب فيما بينها و الاستفادة من تجارب بعضها البعض و قد تجلى لنا ذلك من خلال دعوة المذهب الرومانتيكي إلى الاهتمام بآداب الأمم الأخرى. ومن جانب ثالث رأينا أنه كان لعالم التأثير و التأثر بين الآداب أثر بالغ في توجيه أنظار المستشرقين إلى الأدب العربي نظرا إلى حضـــوره القوي والمؤثر في آداب الغرب.

وبتلاحم هذه الأسباب و تفاعلها فيما بينها ظهر الاستشراق الأدبي المنظم الذي قدم على مر الأيام ، دراسات عن الأدب العربي منوعا في الأسلوب والمنهج للوصول إلى غايات و نتائج تتماشى و تطور الظاهرة الأدبية في العالم العربي. وقد تكون هناك أسباب أخرى دفعت بالمستشرقين إلى الاهتمام بالأدب العربي ولكن آثرنا الوقوف عند أهمها وألصقها بطبيعة الأدب.

ويبقى المنهج المقارن هو المجيب الوحيد عن مجموعة من التساؤلات الخاصة بهذا الموضوع الذي لا يمكن أن نلم به وبأطرافه كلها لأنه يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها ومستقلة حتى تكون النتائج المتوصل إليها دقيقة يقبلها العقل و قد تكون نواة لمجموعة من الدراسات الأخرى.

الهوامش:

1-Gaston Wiet : Introduction à la littérature arabe, édition GP, maisonneuvre et larose,Paris,p10.

2-عمر الدسوقي في الأدب الحديث، ط8، ج1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966، ص.385

3-إبراهيم أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص.91

4-عائشة عبد الرحمن: تراثنا بين الماضي والحاضر، دار المعارف، مصر، 1971، ص50/49.

5-Gustave Lanson : Essais de méthode de critique et d'histoire littéraire, librairie hachette, Paris,1965,p66.

6-كارلوني وفيللو: تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، ترجمة جورج سعد يونس، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، لبنان، (دت)، ص113.

7- Gustave Lanson : Essais de méthode de critique et d'histoire littéraire,p 61.

8-غنيمي هلال: الرومانتكية، دار العودة، بيروت، 1973، ص.123

9-المرجع نفسه: ص.127

10-حلمي مرزوق: النزعة الرومانتكية والواقعية في الأدب، الأصول الأيديولوجية، دار الحوار، النهضة العربية للطباعة والنشر، 1980، ص.15

11- غنيمي هلال: الرومانتكية، ص.125

12- حلمي مرزوق: النزعة الرومانتكية والواقعية في الأدب، ص.15

13-المرجع نفسه: ص.24

14- غنيمي هلال: الرومانتكية، ص.147

15-غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3، 1983، ص.105

16-عبد المطلب صالح: مباحث في الأدب المقارن، دار الشؤون الثقافية العامة، 1987، ط2، ص121.

*-هناك دراسة أودت بهذا الصدد بعنوان: Le proche orient dans la littéraire Française de Nerval à Barres.

تأليف حسن النوتي، تتبع فيها صورة الشرق في الأدب الفرنسي مع مجموعة من الأعلام كاشفا عن المنابع الشرقية في كتاباتهم.

17- غنيمي هلال: الأدب المقارن، ص.109

18- عبد المطلب صالح: مباحث في الأدب المقارن، ص120.

19- Gustave Lanson : Essais de méthode de critique et d'histoire littéraire,p93.

20-المرجع نفسه: ص.91

21- المرجع نفسه: ص.91

22- المرجع نفسه: ص.93

23- المرجع نفسه: ص.89

24- عبد المطلب صالح: مباحث في الأدب المقارن، ص89/.99

25-طه ندا: الأدب المقارن، دار المعرفة الجامعة الإسكندرية، (دت)، ص.268

26-إدوارد سعيد: الاستشراق المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبوذيب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، 1984، ص.163

27-عبد الحكيم حسان: صلات الأدب العربي بالآداب الأجنبية، أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، الجزائر، ص.96

28-غنيمي هلال: الأدب المقارن، ص.320

29-Aboul –Hussein (Hiam), et Pellat (Charles): Chéhérazede personnage littéraire, Société nationale d'édution et de Diffusion, 2éme édition, Alger, 1981,p07.

30- المرجع نفسه: ص.07

31- المرجع نفسه: ص.07

32-سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1957، ص.53

33- طه ندا: الأدب المقارن، ص.261

34- عبد المطلب صالح: مباحث في الأدب المقارن، ص102/101.

35-Juan Vernet : Ce que le culture doit aux arabes d'Espagne, la bibliothèque arabe Sindbad, Paris,1985, p313.

36- عبد المطلب صالح: مباحث في الأدب المقارن، ص.101

37- سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة، ص54.

*-في هذا الموضوع أنظر : عبد الإله ميسوم تأثير الموشحات في التروبادور، ص187، 191.

38- عبد المطلب صالح: مباحث في الأدب المقارن، ص.95

39- طه ندا: الأدب المقارن، ص254.

40-Juan Vernet : Ce que le culture doit aux arabes d'Espagne,

41- عبد الإله ميسوم تأثير الموشحات في التروبادور، ص.117

42-المرجع نفسه: ص178.